موقع الأديب
علي احمد باكثير
www.bakatheer.com

علي أحمد باكثير في روايته وا إسلاماه

د. عبد الغني أكوريدي عبد الحميد - نيجيريا

رواية "وا إسلاماه" رواية تاريخية بطولية دينية (جهادية) تتركز على مواجهة فتنة طغيان التتار الغاشم على أراضي المسلمين. هذه هي فكرة محددة ساقها الكاتب لتكون مطابقة للواقع وقام بعدة عمليات فنية كغوص في جذور القصة وأعماقها الخفية وانفعاله بالأحداث. فتدور القصة بعد ذلك بالأحداث والوقائع الجزئية التي رتبها الكاتب ترتيبا سببيا وانتهى إلى نتيجة طبيعية لهذه الوقائع. وهي أحداث تسلسلية محكمة غير مفككة لا يقل عن ثلاثين موقفا لم يكن كاتبنا علي أحمد باكثير مجرد ناقل الأحداث وإنما ينظر إلى الأحداث اليومية العادية نظرة تختلف عن نظرة عامة الناس، لذا لم يكتف بما يصله من أحداث وإنما هو يسعى وراء المزيد منها ويتفاعل بالأحداث المقروءة والمسموعة والمتخيلة، مثل انفعاله بالأحداث الواقعية..

لم يلجأ كاتبنا في سرد الحوادث إلى المصادفات حتى لا تفقد قيمة فنية وإنما ربط الأحداث بطريقة فنية تلقائية نابعة عن موهبته القصصية فوصل به الواقع إلى تعدد صفحات إذ تتكون صفحات الرواية من مائين وثمان وعشرين صفحة .

ومن الجدير بالذكر في قضية الأحداث أن باكثير بدأ قصته من حيث يجب أن ينتهي منه ثم يعود بقارئه، بسرد تطور الحوادث التي أدت إلى تلك النهاية التي افتتح بها قصته وتسمى هذه الطريقة بالانجليزية "فلاش باك"(١) ألا وهي استطلاع سلطان جلال الدين النجوم فقال له المنجم: "إنك يا مولاي ستهزم التتار ويهزمونك، وسيولد في أهل بيتك غلام يكون ملكا عظيما على بلاد عظيمة، ويهزم التتار هزيمة ساحقة" هذه المقولة تمتلك القارئ الذي يكون في أوج انتباه شديد من بداية القصة(٢).

بطل الرواية

لا يكفي الحدث وحده في تأليف القصة بل لا بد من وجود الشخصية التي تدور القصة معها أو حولها وهي في هذه الراوية الملك المظفر محمود (قطز) الذي ولد في قصر ممراته مفروشة بالرمل الناعم ذلك الطفل الذي فقد والده وهو في المهد وأغرقت أمه في اليم وهو صبي ثم أصبح مملوكا ذا متربة وغيّر اسمه إلى (قطز) ذلك الأسد الهائج الذي أضحى ملكا بعد تلك المحنة الطويلة فقاتل التتار وتغلب عليها. وكان مصر بعد ذلك عاصمة المسلمين وملاذهم، ومظهر قوتهم وسلطانهم وأصبح اسمه مخلدا إذ لم يول أمر المسلمين بعد عمر بن عبد العزيز من يعادل الملك المظفر محمود بن ممدود صلاحا وعدلا.

وهناك شخصيات في سياق الأحداث تستهدف من ورائها العبرة وهي شخصيات ثانوية استطاع الكاتب أن يتخيلها ويحضر أكثر من خمس عشرة شخصية منها:

جهاد التي هي بنت السلطان جلال الدين بن خوارزم ونشأت منذ الصغر مع بطل الرواية (محمود) وطال بينهما الفراق فأصبحت مملوكة وتكالبت عليها أزمان إلى أن التقيا فأصبحا زوجين فزفت جهاد لمحمود ولم يستطعا النوم تلك الليلة لفرح الوصال وسرور الالتقاء بعد تفرق طويل ممل فماتت مستشهدة في سبيل الدفاع عن الدين الوطن فهي التي تلفظت في أنفاسها الأخيرة لما قال لها زوجها محمود (ملك المظفر) وازوجاه ! وا حبيبتاه! فقالت وا إسلاماه![٣]

سلطان جلال الدين بن خوارزم شاه محمد بن تكش ملك الهند وإيران وخراسان ذاق مثلما ذاق أبوه من التتار حتى تشتتت دولته إلى أن قتله كردي

الأمير ممدود ابن عم سلطان جلال الدين وزج أخته الذي كان يدي السلطان اليمني وتوفي هو في إحدى الغزوات مع التتار في عمر لم يتجاوز الثلاثين من عمره

الشيخ سلامة الهندي الذي كان خادما لأسرة خوارزم ثم تولى رعاية الطفلين محمود وجهاد إلى أن وافاه أجله إثر اختطافه هو و الطفلين على يد

جماعة من أهل خلاط . والشخص الذي اشترى محمود وجهاد من المختطفين وأكرم مثواهما هو **الشيخ غنائم المقدسي**. أما **الشيخ ابن عبد السلام** فقد كان لبطل القصة هارون موسى سكّن قلبه ورقه وكان مساندا له في مراحل حياته المتعددة وكانت الملكة شجر الدين زوجة الملك الذي قتل إثر الغزوة التي خاضها مع التتار ثم تزوجت بالملك المعز الذي قتلته وكانت هي التي زفت جهاد لمحمود في قلعة الجبل أما **بيبرس** كان مملوكا وزميلا لمحمود أيام كونهما مملوكين ثم خدما أمراء مصر وكانا من خشداشية فأصبح الملك بعد أن قُتل بطلُ القصة (محمود).

استطاع باكثير أن يجعل جميع شخصيات قصة "وا إسلاماه" حيوية فعالة ومتفاعلة مع الأحداث، متطورة بتطورها من أول القصة إلى آخرها فهذه الحيوية ذات تأثير كبير في تصوير كل موقف من المواقف منفعلة به غير جامدة على حالة واحدة. فصوّر باكثير همسات الروح وخطرات العقل ونوازع الجسم في هذه الرواية لأنه كلما كان الصراع قويا بين عناصر القصة كلها كانت القصة أنجح وأعمق تأثيرا[٤].

لاح في رواية "وا إسلاماه" شخصية مزيج من الخير والشر يقابل الخيرات ويفاجئ بالأشرار سواء من قصر السلطان جلال الدين لما كان محمود صبيا أو لما انتقل إلى الهند في كنف سلطان جلال الدين والشيخ سلامة الهندي ثم فاجئ بالمصائب والمحن لما أصبح مملوكا. ونال الخير والشرف بعد ذلك لما أضحى ملكا لمصر بأكملها.. لقد وقف باكثير إذ كان يجعل في القصة شخصياته تتبدل بحسب ما تقتضه مواقف القصة. وخلال ذلك كله حسن إذ صور في الشخصية البعد الجسمي حيث رسم لنا أوصاف البطل أو الأبطال من الخارج طولا وعرضا، بدانة أو نحافة كما وصف لون البشرة وملامح الوجه وما إلى ذلك من خصائص خلقية مميزة. استمع إلى قول باكثير وهو يصف بطلا من أبطال القصة يسمى "بيبرس" الذي كان مملوكا ثالثا للمملوكين (قطز وجلنار)"... بيبرس هذا الغلام القبقاجي الأشقر ذي العيون الزرق تنم عن الحيلة والمكر.."[٥]

وصور في مواقف كثرة البعد الاجتماعي لأبطال القصة فصور ثقافتها وعقيدتها وهوايتها وبيئتها والمجتمع الخارجي المحيط بها. عرفنا الشيخ سلامة الهندي ثقافة وعقيدة من خلال وقوفة بجانب الطفلين (محمود وجلنار) لما أصبحا مملوكين برغم غياب سلطان جلال الدين كان موقفه موقف السلوة والتسلية لهما ويتبعث في أنفسهما الرجاء والأمل حيث يقول مثلا: ".. فإنك ستكون ملكا، وتهزم التتار ومولاي السلطان لا يشك في هذا ألبتة" اذكر قصة يوسف الصديق عليه السلام كيف بيع بدراهم معدودة لعزيز مصر، فما لبث أن صار ملكا على مصر، وهكذا تحدثني نفس أنك ستكون كيوسف، غير أن يوسف كان من بيت النبوة وأنت من بيت الملك؛ ياليتني أعيش حتى أراكما تملكان البلاد، ولكنني شيخ كبير لا أحسب عمري يمتد بي إلى ذلك العهد السعيد[٦] وكذلك برز هذا البعد الاجتماعي خلال الرواية من أولها إلى آخرها لأبطال القصة كشخصية ممدود الذي كان وافيا للعهود والشيخ غانم المقدسي الذي كان رؤوفا بالآخرين والملكة شجر الدر التي كانت تحب الرئاسة وتحمل ضغائن الآخرين في ضميرها ورئيس التتار أيام السلطان جلال الدين الذي كان شديدا أو عازما على هلاك المسلمين.

أما رسم القصاص للبعد النفسي في شخصيات القصة أو أبطالها فحدث ولا حرج؛ لأن هذا البعد حصيلة البعدين السالفين (البعد الجسمي والاجتماعي) إذا اعتنى كاتبنا بتصوير عواطف الشخصية أو الشخصيات وطباعها، وطريقة تفكيرها وتصرفاتها وردود فعلها اتجاه المواقف المتعددة ودرسها دراسة كاملة شاملة فمثلا الحاج علي الفراش الذي كان شيخا صالحا يخدم سريا آخر من سراة دمشق وأعيانها يدعى ابن الزعيم وكان يسكن في قصر قريب من قصر الشيخ غانم المقدسي مولى قطز.. كان الحاج علي هذا شديد العطف على قطز والحب له وقد أحسّ في ضميره بما أعطي من قوة الفراسة وصدق الحديث، أن لا بد لهذا الملك (قطز) في صباحة وجهه، ونبل خلاله من سر يكتمه عن الناس جميعا. لذا لما صرح له قطز أنه ابن جهان خاتون أخت جلال الدين ووالده

ممدود ابن عمه واسمه محمود، وإنما سماه قطز اللصوص الذين اختطفوه فباعوه، قال الحاج علي: "الآن تحققت فراستي وصدق ظني فيك، والله لا إله إلا هو لقد حدثني قلبي أول يوم عرفتك فيه أنك لست مملوكا جلب من مجاهل ما وراء النهر، وأنك ترجع إلى أصل كريم.. فلما بلوتك واختلطت معك عرفت أن لك سرا تكتمه عن الناس جميعا. فحدست أنك ابن ملك أو أمير نكبه الزمان فألقاه في أيدي باعة الرقيق"(٧).

صور باكثير حالة قطز وجلنار ساعة الفراق تصويرا رائعا مبكيا ينفعل له القارئ؛ نعم لما أقبل موسى ومعه السمسار وجماعته لبيع جلنار لهم ليفرق بين حبيب وحبيبته قال علي أحمد باكثير: "أرسلت" (جلنار) ثياب مولاتها الوالهة الحسرى. ومالت فأهوت على رأسها تقبله حتى بللته بدموعها، والعجوز تلثم أطرافها وتبكي، إلى أن تقدم قطز. فجذبها منها وهو يقول: حسبك يا جلنار، توكلي على الله ولا تحبسي أصحابك، وثقي بأن الله موجود وهو على جمعنا إذا يشاء قدير(٨).

إذا كان البعد السابق حزني وهناك آخر فرحي وسروري ذلك هو تصوير باكثير لمناسبة عقد تزويج جلنار لقطز على يد الشيخ عز الدين بن عبد السلام وكانت الملكة شجر الدر هي التي تولت بيدها إصلاحها وتزيينها وزفتها بنفسها إلى (سيف الدين) قطز، صور باكثير الموقف بعد أن انفضت جموع المدعوين والمدعوات، وسكتت أصوات الغناء.. قائلا : أريخت الستائر على الجناح الميمون، وخلا الحبيبان السعيدان فطاب اللقاء وساد الصفاء وسالت دموع الفرح، وتحدث القلب إلى القلب ولذت الشكوى، ورقت النجوى، وتذوكرت ذنوب الزمان ثم غفرت له دفعة واحدة، ومرت اللحظات، كأنها حبات عقد من اللؤلؤ النضيد وهي سلكه فانتثر وقرت بنعيم الوصل عيون طالما أسهدها البين الطويل، فما كانت تنطبق إلا على لوم نافذ، ومضجع قلق. فيمشي إليها النعاس مترفقا يستعتبها فأعتبته وضمته في شوق بين أهدابها الساجية. فرقد اثنان الحب ثالثهما تحوطهما بسمات الله ورضوانه. وتحقيق حلم في الأرض، وأجيبت دعوة

في السماء انطلقت من فم رجل صالح: واطمأنت روحا امرأتين غرقتا في نهر السند، وكانتا كثيرا ما تنظران إليهما صغيرين يلعبان في حديقة القصر الملكي بغزنة فتتمنيان أن تريا مثل هذا اليوم. حتى تنفس الصبح وبرد السوار، فهب العروسان مذعورين يخشيان أن يكون ما كانا فيه رؤيا في المنام، والتمس أحدهما الآخر في نور الغبش، فإذا هما متعانقان(٩).

لقد أحسن باكثير في جانب ما يسمى بقيمة الأشخاص في القصة وأثرهم في نجاحها وتفوقها، فظهر تفوق كاتبنا في تشخيص أشخاص القصة وجعل القارئين يعرفونهم ويتعاطفون معهم. من ذلك القارئ الذي لا يتعاطف مع سلطان جلال الدين لما أمر بإغراق أخته وزوجته وأمه خوفا من أن يقعن أسيرات في أيدي العدو؟. ومن الذي لا يحب بطل القصة (قطز) في شجاعته عند لقائه مع عدوه اللدود (التتار)؟ ومن الذي لا يكره موسى الذي شتت بين الحبيبين بعنف، وهو لوالديه.

كذلك يحب قراء القصة أدوار جلنار والشيخ سلامة الهندي والشيخ ابن عبد السلام والحاج علي الفراش وكما يكره قراء القصة أدوار رئيس التتار جنكيزخان وبعد ذلك رئيس التتار أيام قطز هولاكو وبيبرس، أو الملكة شجر الدر. فصاغ الكاتب شخصيتها تحب حينا وتكره حينا آخر هذا من مميزات هذه الرواية إذ لم يجعل الشخصيات البطولية على وطيرة واحدة. كما أن رجال القصة ونسائها متحركون ومتحركات في عمله القصصي كأنهم مخلوقات حية.

الحبكة

كانت في الرواية نعني بالحبكة السياق أو المجرى أو الوحدة العضوية التي تجري فيه القصة وتسلسل أحداثها. تميزت رواية "وا إسلاماه "بأن أحداثها تندفع بشخصياتها وتتصارع وتستولي أثناء هذا كله- على لب القارئ بأحكام الروابط بين هذه العناصر كلها حتى تبلغ النهاية. فطريقة المعالجة الفنية التي يجربها الكاتب على المادة الأولية بعد قراءتها طريفة ومشوقة. فالقصة تستحق

بذل المجهودات فيها لأن الكاتب نجح أن يقصها علينا ببراعة وافتنان وبعيدة عن الحشو والإسهاب والحذف والإيجاز في تسلسل تفسدها. فالحوادث تتتابع والأفكار تتسلسل مستمدة من الواقع الذي يعيش القاص فيه علما بأن قدرة الكاتب على قص الحوادث ببراعة وتسلسل دون حشو أو استطراد لها قيمة فنية عظيمة لا يدركها إلا الذي تكلف نفسه عناء مراقبة أحداث المجالس الخاصة والعامة. لقد أظهر باكثير خبراته الطويلة في الكتابة فتفنن بأسلوبه إلى نقل ما يجري في سوق الرقيق حيث ينادي دلال على عبد بيبرس وقد أقيم على الدكة:

من للفتى القبقاجي ... ينفع في الحماق
يدفع عن مولاه ... كيد الذي عاداه
ستطلع الأيام ... إن صح ظني فيه
مغامرا مقدام ... يعز من يؤويه
يهزأ بالأهوال ... في ساحة النزال
أنكى على الأبطال ... من أسد رئبال[10]

وصنف آخر من عجائب باكثير في نقل الحوادث من المواقف المختلفة وصفه لوقائع الحرب فهذا كثير في روايته حتى كان فيه نوع من الإسهاب والإطالة والإطناب. فاستمع إليه عندما كان يصف ما يحدث في الوغى: "صليل السيوف، وقعقعة الرماح وحفيف السهام وصهيل الخيل وصيحات الأبطال وتشهد الصفوف تزحف، والصفوف تنهار، والفرسان تكر، والأعداء تنهزم وتفر..[11] من الجدير بالذكر أن في جذب انتباه القارئ للرواية متوفر فالحبكة في هذه الرواية متماسكة، مترابطة غير مفككة إذ اعتمد كاتبنا فيها على تسلسل الأحداث تسلسلا يجذب القارئ ويستولى على عقله وقلبه. فعناصر المغامرة فيها والانفعالات جعلت النهاية سعيدة ومفرحة إذ كتب الله اللقاء للحبيبين بعد تفرق طويل في النهاية واستطاع قطز أن يصبح ملك مصر وفاز على التتار الغاشم.

البيئة

تعتمد القصة على ركنيها الأساسين فهما الأحداث والشخصيات وثالثة أثافيها هي الوسط أو ما يسمى بالزمان والمكان أي بيئة تعيش في كنفها الشخصيات وتدور بين أرجائها الأحداث. كان باستطاعة باكثير في هذه الرواية رسم البيئة بالملاحظة والمشاهدة أو بقراءاته الواسعة والخاصة فنسجها بخياله نسجا مسلط عليها قوة الاختراع والإبداع معتمدا على ما كان يلتقطه في أثناء تجاربه في الحياة، نرى واضحة مظهر البيئة المادية بمظاهرها المكانية والطبيعية في وصفه لحديقة قصر سلطان جلال الدين: "فأخذا (سلطان جلال الدين وممدود) يمشيان بين الكروم والأشجار في ممرات تفصل بينها مفروشة بالرمل الناعم الأصفر. وكانت السماء صافية الأديم، والبدر يرسل أشعته البيضاء على غصون الشجر، فيتألف من ذلك مزاج من اللونين، رفيق بالعين، ترتاح إلى رونقه الحالم البهيج، وعلى الكروم المعروشة فتبدو عناقيد العنب كأنها عقود من اللؤلؤ المنضود، وعلى أشجار التفاح بثمارها المتهدلة كأنها حسان خفرات غازلها القمر العابث فأخذت تلوذ منه بورق الغصون، ويسقط فضل أشعته على الأرض فينثر فيها دنانير تمنع الكف ما تتيح العيون"[12].

لقد أحسن كاتبنا في عثوره على أوصاف البيئة الطبيعية والاجتماعية في كتب التاريخ حيث كان يلتقط أوصاف البيئات وأخلاق أبطال القصة وعاداتهم في تلك الفترة وهو بطبيعة الحال لم يتقيد بها تقييدا تاما، وإنما ترك لخياله اللمسات الفنية التي تصهر هذه المادة وتمزجها مزجا تاما، وتحيلها إلى مهاد تتحرك عليه الحوادث وتسعى فيه الشخصيات، إن عناية باكثير بإيثار الوصف المفصل الدقيق واضحة شفافة في الرواية. هنا وصف لنا ما حدث بين فئة من المؤمنين وفئة من شيعة التتار فقال: " فأهوى الكندي عليه بضربة قوية ، كادت تفلق رأسه، لو لم يتقها بيبرس بسيفه، فانكسر سيف بيبرس. ورفع الكند يمينه بالسيف ليضربه ضربة ثانية، فعاجله قطز بضربة أطنت يمينه من ساعدها فهوت على الأرض وسيفها في قبضتها! ثم طعنه بالحربة في مفرح المغفر من

عنقه، فاندلع لسان الحربة من حلقه، وهوى الكند صريعا. فكبر قطز وكبر بيبرس وكبر المسلمون إثرهما، ودفعت السدة ففتحت على مصراعيها.[١٣]

لقد دأبت العادة أن تكون القصة بين إحدى القصص الثلاثة: قصة الشخصيات وقصة البيئات وقصة الأحداث فهذه الرواية تنتمي إلى الأخيرة لأن أحداثها كثيرة ومتعددة ومع ذلك لها نصيب الأسد من جانبي الشخصيات والبيئات. هناك بيئة تتمثل في فترة وجيزة قضاها الشيخ سلامة الهندي ومحمود وجهاد في قارب من قوارب الصيد ليحملهم إلى الضفة الشرقية للنهر وكان الصياد خلال الفترة حدثهم بأمور صاغها الكاتب بصيغة جميلة.. "يحدثه (الصيد) هذا عن حياة الصيد وما يلقى فيها من الأخطار. وعن أهول ليلة مرت به في حياته، مفاخرا بصبره وشجاعته. ثم ينتقل به إلى قريته فيحدثه عنها وعن حياة أهلها وعاداتهم في أعراسهم ومآتمهم، وعن كوخه وزوجته وأبنائه وبناته، وعن مزرعته الصغيرة وفراخه وأرانبه وبقرته الحلوب وكيف تعنى بها زوجته، وعن ببغائه الجميلة كيف تسمع الكلام فتحكيه وترددده وتسلى أولاده. فكانا يشعران به من الخوف"[١٤]. فتم خلال الفترة الوجيزة معرفة تقريبا سيرة الصياد الذاتية.

بقاء القصة

تتمتع رواية "وا إسلاماه" بكثير من عناصر الإمتاع والتشويق تجعل القصة باقية في أذهاننا بعد أن ندعها جانبا وننسى تفاصيلها هذا يدل على براعة الكاتب وأسلوب عرضه. إن قوائم هذه القصة تبدو محكمة مترابطة غير مفككة ولا مخلخلة، فالمواقف ملائمة الأحداث متصلة بها إلى النهاية محن التتار قبل ولادة قطز- بطل القصة- وتشتت الأسرة المالكة ثم بعد ولادته وتمادى الحوادث في صباه وفي شبابه فأمر التتار شغله الشاغل إلى أن تغلب عليهم في نهاية المطاف قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. هناك عدد من العبارات تقفز إلى ذكريات القراء ولا تستطيع الأيام مع طولها على محوها منها:

-"هاأنذا قضيت على خوارزم شاه وولده، وشفيت غليلي وأخذت بثأري" قول جنكيزخان رئيس التتار.[١٥]

-"لا ينبغي أن نقع في أيدي التتار بالله عليك اقتلنا بيدك وخلصنا من الأسر والعار"! قول عائلات جلال الدين.[١٦]

-"يا هذا لا يعلم الغيب إلا الله، وإنما جئنا بك لتبشر السلطان لا لتخوفه، وليس السلطان بمن يخاف من تنبؤاتك". قول ممدود للمنجم.[١٧]

-"إنكم جنود الله حقا، وما أنتم إلا ملائكة بعثهم الله من السماء لتأييد المسلمين، وإننا مدينون لكم بحياتنا وانتصارنا" هذا قول سلطان جلال الدين لجيش بخاري وسمرقند بعد تغلبهم على التتار في تلك المرة.[١٨]

-"لعن الله ابني فشد ما عذبني وآذاني، يا ليتني عقرت فلم أحمل به، أو ليتني إذ حملت به أسقطته! لن يكف عني هذا الولد العاق حتى يلحقني بأبيه، حسبي الله منك يا موسى حسبي الله منك"! قول أم موسى لابنها الوحيد موسى العاق وذلك لما أتبعها ص: ٨٤.[١٩]

إن أمثال هذه الأقوال والنصوص تتردد على ضمائر القراء تهمس إلى آذانهم من حيث لا يعلمون؛ فهي تجعل القصة باقية.

هدف القصة العام

لا بد أن يكون للأدب أو الفن مضمون يستهدف من ورائه كإصلاح المجتمع عامة، أو حل مشكلة من المشكلات الإنسانية. لو دققنا النظر في قصة "وا إسلاماه" لوجدناها ذات هدف سام وهو:

١- إبراز مكانة مصر العزيزة في حمل لواء الزعامة في جهاد ضد التتار.

٢- تخليد اسم الملك المظفر قطز، بطل، وقدوة، صاحب الشجاعة والحزم والصبر والعزم والوفاء والتضحية والحزم وصاحب الحنكة السياسية والكفاية الإدارية والإخلاص في خدمة الدين والوطن.

٣- التركيز على إثارة روح الجهاد في قلوب المسلمين في خدمة الدين والوطن وأن الجهاد لو انتفع به لأتي الناس بالعجائب والمعجزات.

٤- التذكير بحقارة الدنيا وفناء زخرفاتها وملذاتها يقول الكاتب على لسان الملك المظفر قطز: " ما أحقر هذه الحياة الدنيا لذوي النفوس الشاعرة ، وما أهونها على من ينظر في صميمها ، ولا ينخدع بزبرجها وباطل نعيمها. لقد كتب الله عليها أن لا يتم فيها شي إلا لحقه النقصان ولا يريح فيها امرؤ إلا أدركه الخسران ".(٢٠)

لقد أدرك باكثير أن القصة ليست منبرا للمواعظ وإلقاء الخطب، بل هي معرض للتصوير والتحليل يوحي برموزه وإشاراته إلى القارئ بالغرض الذي رمى إليه الكاتب القصصي، إن أهداف القصة المذكورة مطوية في النص خلال غضون الحوادث دون صراحة واضحة ومن غير ملموس بالكلام المكشوف.

الأسلوب:

بدا أسلوب الكاتب متمكنا من اللغة، عباراته محكمة السبك معبرة عن أفكاره راسمة لصوره. فنقل إحساسه الذي يعتلج في صدره حيث أدرك باكثير ما رآه النقاد من أن الأسلوب هو الإطار الفني الذي يتفاوت فيه الأدباء تحديدا وابتكارا أو تقليدا واحتذاء حتى قيل الأسلوب هو الرجل (٢٠) لقد ظهر أثر ثقافة الكاتب واضحة في أسلوبه من حيث تأثره بما قرأ من كتب قديمة وحديثة في عهده وما تلقى من ثقافة علمية أو أدبية عربية مختلفة وكذلك ثقافات أجنبية إذ جال في كثير من الدول الغربية فانهل وتأثر بالثقافات الانجليزية والفرنسية وغيرهما. فعبارة: ما أقصاك عنا يا دمشق، وما أدناك منا يا مصر(٢١) صيغت بأسلوب سهل ممتع.

أما الاقتباس القرآني فهو ظاهرة واضحة في أسلوب باكثير يقول مثلا عقب تغلب المسلمين على التتار: " والتجأ الملك الخاسر إلى تل المنية، منية عبد الله، وقال: "ساوي إلى جبل يعصمني من الموت:". قال المسلمون : " لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم" وتم بينه وبينهم الأمان فكان من المعتقلين. وقيل: يا أرض القتال ابلعي أشلاءك يا سماء الموت أقلعي، وغيض الدم، وقضى الأمر

واستوت سفينة الإسلام على جودي النصر" وقيل بعدا للقوم الظالمين ومثل هذا الاقتباس ظهر في مناسبة أخرى: " لقد تحقق ما كان يخشاه الأمير ممدود، فقد تغير جلال الدين لما بشر بالأنثى ، وظل وجهه مسودا وهو كظيم"(٢٢).

لقد وفق الكاتب في اختيار الألفاظ التي تتصف بالدقة في الدلالة على معناه الشعوري المعبر عن الموقف وبالقدرة على اللفظ القادر على إثارة المشاعر وتحريك الأفكار نحو الهدف الذي يحاول الأديب أن يصل إليه مع كل هذا يبتعد كاتبنا عن الألفاظ التي تتنافر فيها الحروف، فتثقل على اللسان أو أن يمجها السمع أو غريبة المعنى وخافيه ولا مبتذل سوقي، لأن الابتذال والغلظة كلاهما ينفيان عن اللفظ طرافته.

فالألفاظ في هذا النص وفي أمثاله تتصف بالاستعمال وبالإفادة ولا يكرر إلا لسبب مقبول يسوغ من أجله التكرار بحيث يعطي إضافة إلى المعنى ففي مجال التركيب فهو موافق للقواعد والأصول التي قررتها طبيعة القصة، وبعد أن استوفى الكاتب أداء الألفاظ والتراكيب على الوجه المطلوب أعطى الإيقاع الموسيقي لتلك الألفاظ والتراكيب حقه بحيث يحقق المتعة النفسية للقارئ مثلا كان يرون لنا باكثير معاتبة الملكة شجر الدر لجلنار فقال: "فتربصت الملكة حتى رأت بعينها صدق الوشاية، فعاتبت جاريتها على ما صنعت وتوعدتها بأن ترفع أمرها إلى السلطان إذا هي عادت لما نهيت عنه. فلم تجب المظلومة بغير دموعها وسكتت على مضض ولم تستطع أن تدلي بحجتها في حب ابن عمتها وأليف صباها"(٢٣).

نرى الخيال لدى كاتبنا من أنفع المواهب إذ يتخذه معيار جودته بما فيه من قوة التشابه بين المشاهد الخارجية وما توحي به من انفعالات وما تبعثه من عواطف. ثم قوة الابتكار في الشخصيات المبتكرة. ثم جمال تصوير الطبيعة والتأمل في محاسنها وأسرارها، وكذلك القدرة على إبراز المعاني بحيث تتراءى كأنها محسنة أو مجسمة(٢٤). استطاع باكثير بواسطة الخيال أن يجعل هذه القصة ممكنة الحدوث: إذ تخيل كاتبنا شخصيات قصته وأحداثها فأضافه على حبكتها

وبنائها، مازجا بينه وبين الواقع، وقل أن نجد قصة واقعية مائة بالمائة وإلا انقلبت خبرا من الأخبار، أو حادثة من الحوادث. انظر كيف صور باكثير محاولة ناجحة قام بها الشيخ سلامة الهندي في الاحتفاظ بالطفلين ثم إلحاقهما بجلال الدين بلاهور. ترى أيها القارئ العزيز كيف تخيل كاتبنا اكتشاف قطز أن محبوبته (جلنار) في قلعة الجبل بقصر السلطان من مقصورة الملكة شجر الدر عبر رمى جلنار الوردة.. فالخيال هنا حقيقة لواعج الحب ونوازع الحنين.

من مميزات رواية وا إسلاماه

يتبين بعد هذه الجولة الطويلة مع رواية "وا إسلاماه" أن باكثير وفق فيها حيثما راعى في عرض الموضوع جانب التلميح ما أمكن، وحذر جانب التصريح فلم يشرح الموضوع حتى لا يكون كأنه لم يترك شيئا لفطنة القارئ وذكائه. وإذا نسي هذا الجانب لتهم قارئه بالغفلة وجمود الذهن... ومع ذلك لم يجنح إلى الإغراق في التلميح مخافة التورط في الغموض والإبهام فيضل القارئ في فياف لا يقر له فيها قرار. ويعد كذلك من مميزات هذه الرواية عدم جعل الكاتب شخصيات القصة بوقا ينقل إليه الكاتب من الكلام فيكون هو على لسان هذه الشخصيات الببغاوية. أبقى لشخصيات القصة كيانها المستقل. لم يدلنا باكثير على شخصية (بيبرس) أن يقول أنا بائس، ولكنه عالج الموضوع بشكل تفصح الحوادث نفسها عن بؤس هذه الشخصية. ولم يصرح باكثير أن الشيخ ابن عبد السلام محسن لكن المواقف تظهر أنه رجل الخير والأمانة والاستقامة.

إن القصة حافلة بعناصر التشويق إذ استحوذ على القارئ في أثناء القراءة روعة تدفعه إلى متابعة القراءة في نشاط وانتباه مع الحذق واليقظة من جانب الكاتب إذ كان بإمكانه أن جعل مظاهر التشويق جزءا طبيعيا من سياق القصة مع توفر وسائل اللذة والاستمتاع من ناحية اللغة اعتنى الكاتب بلغة قصته؛ لم يبالغ في التحسينات البيانية وغيرها من نحو الاستعارة والتشبيه والترادف بل جعل الألفاظ على أقدار المعاني جهد المستطاع، وعلم أن بلاغة الكتابة تكون

بمراعاة المقام فتجنب الأسلوب المبتذل؛ ونعني بالابتذال في الأسلوب استعمال الألفاظ الشائعة شيوعا يفقد الرونق والبهاء والوقوف عند التراكيب الركيكة التي لا تستبين بها قدرة اللغة على التصرف في الأداء والتعبير فاختار باكثير اللفظ الرشيق والتركيب الشريف.

لجأ الروائي الماهر مثل باكثير إلى الحوار في سبيل تطوير الحوادث واستحضار الحلقات المفقودة منها. وهذا اللجوء يحدث أحيانا وشح الكاتب كلامه به، فمثلا "في حوار قصير جرى بين قطز والحاج علي الفراش هكذا:"

-فنظر إليه قطز مستغربا، وسأله:

-هل عرفت ذلك قبل أن أخبرك الآن؟

-إي والله قبل أن تحبرني بزمان طويل.

-شئ والله لعجيب، كيف عرفت ذلك يا حاج علي؟

كما زيّن كلامه من حين لآخر بأمثال رائعة، فمثلا يذكر بحقوق الجيران العقلاء عندما يندلع النار في بيت جاره القريب" وإن مثله ومثلهم مثل التتار كمثل من اشتعلت النار في بيت جاره الأدنى فعليه أن يسعى لإطفائها وليس لجاره أن يقول له: " لا شأن لك بداري"[٢٥]

إسلامية رواية "وا إسلاماه"

القصة الإسلامية فرع من دوحة الأدب الإسلامي الذي يعرّف (بأنه التعبير الفني الهادف عن وقع الحياة والكون والإنسانية على وجدان الأديب تعبيرا ينبع من التصور الإسلامي للخلق عز وجل ومخلوقاته[٢٦] إن من أغراض القصة الإسلامية النفوذ إلى أغوار النفس الإنسانية وبيان مكامن القوة والضعف فيها واكشف عن نوازع الخير والشر التي تتداولها.[٢٧]

بتناولنا رواية "وا إسلاماه" رأينا أنها رواية إسلامية لمحتواها، لأنها تحمل في طياتها إرشاد الإنسان إلى مناحي قوته وضعفه. وتزويده بالسلاح الذي يغلب فيه النفس اللوامة.. على النفس الأمارة. التزم الكاتب فيها الواقعية التي هي سمة

من سمات الإسلام. ووصف فيها واقع النفوس كما هو وكما يجب أن يكون. ودعا باكثير إلى الجهاد في سبيل الدفاع عن الدين والوطن، وقارن بين الملك المظفر قطز في تقلبات الحياة وخاصة عندما كان مملوكا وقارن بينه وبين نبي الله يوسف عليه السلام قال الكاتب على لسان الشيخ سلامة الهندي: "اذكر قصة يوسف الصديق عليه السلام كيف بيع بدراهم معدودة لعزيز مصر فما لبث أن صار ملكا على مصر، وهكذا تحدثني نفسي أنك ستكون كيوسف[٢٨]". وظاهرة تلقي الجزاء ظاهرة واضحة في الرواية لعدد من الأبطال كسلطان جلال الدين لما قام بقتل المسلمين الأبرياء جراء ما لقيه من ردّ قبيح من مليكهم، كذلك قتل الملك الصالح إسماعيل خنقا جزاء لخيانة لدينه ولوطنه.. ليبرز لنا الكاتب أن الجزاء من جنس العمل موافقا لقوله تبارك وتعالى في سورة الرحمن الآية: ٦٠ **{هل جزاء الإحسان إلا الإحسان}**. إن الأدب الإسلامي أدب هادف ملتزم يكتبه كاتبه وهو يطرح على نفسه الأسئلة لمن أكتب؟ رأى باكثير أن هذه الرواية كتبها لأصحاب القلوب الحية يسجلها للعقلاء أصحاب الرسالة. ولماذا أكتب؟ السؤال يجيب عليها باكثير على أنه يكتب ليؤثر في المجتمع وليدعو إلى الفضيلة ويعلم يقينا أنه **{ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد}**. سورة ق، الآية: ١٨. أما السؤال الثالث فهو ماذا أكتب إن الرواية تجيب أنه يكتب ما يفيد العالم، وليس مجرد الفن للفن مع أن باكثير صوّر ما جرى بين قطز وجلنار من المحبة والشوق فلم يكن ذلك مدعاة إلى التطرف الخلقي والإغراء التطرفي.. وعلى هذا المعنى يقول عن الرحمن رأفت الباشا: " وفنون الأدب الإسلامي جميعها تقوم على الانتفاع المقرون بالإمتاع، وترى أن المتعة التي لا نفع فيها تقضي على رسالة الأديب المبدع، وتهبط بقيمة الأدب، وتحوّل الأديب إلى إنسان تافه لا فائدة ترجى منه في إغناء الحياة، وإسعاد الإنسان"[٢٩].

خاتمة

في مختتم هذه الجولة مع الموضوع المختصر: "علي أحمد باكثير في روايته "وا إسلاماه" نشير إلى أهم النتائج التي توصلنا إليها في هذا العمل:

١- أن علي أحمد باكثير أديب مبدع خصيب النتاج في متعدد الآفاق والرؤى والفنون.

٢- أن رواية "وا إسلاماه" رواية تاريخية إسلامية تحتفل بالأحداث التترية من نهر السند إلى نهر النيل وهي حادثة من الحوادث التي لا تمحى على الساحة.

٣- أن لمصر العزيزة مجد حمل لواء الزعامة من الجهاد ضد التتار الغاشم.

٤- أنه تتركز الرواية على الدور الفعال الذي لعبه الملك المظفر في خدمة الدين والوطن وعلى إثارة روح الجهاد في قلوب المسلمين وكذلك التذكير بحقارة الدنيا وفناء زخرفاتها وملذاتها وأن لا يتم في الدنيا شئ إلا لحقه النقصان، ولا يريح فيها امرؤ إلا أدركه الخسران.

٥- أن الرواية مفعمة بالشخصيات المتحركة التي تتلاءم مع الأحداث والوقائع، وأن باكثير رسم بيئة القصة رسما دقيقا مما التقطه في كتب التاريخ.

٦- أن الرواية تتمتع بكثير من عناصر التشويق التي تجعل القصة باقية في الأذهان من عبارات محكمة السبك والأسلوب الرصين والاقتباس القرآني المناسب.

٧- إن إسلاميته هذه الرواية واضحة لما تحمل في طياتها من الموضوع الموجه وليس مجرد الفن للفن وتجيب الرواية على الأسئلة الثلاثة بالإجابة المقنعة الموفقة لمن أكتب؟ ولماذا أكتب؟ وما أكتب؟.

٨- مما يؤخذ على رواية باكثير أنه يطيل في وصف حوادث الحروب إطالة مفرطة وأن ملامح لغوية اجتماعية هندية وغيرها ليس لها وجود في الرواية كأن الحوادث كلها وقعت في البيئة العربية فقط.

(١) كيف تتذوق الأدب العربي: على نائي سويد، قسم اللغة العربية- جامعة بايرو - كنو، ١٩٧٨م، ص ٣٢.
(٣) علي أحمد باكثير: وا إسلاماه، ص١٠.
(٤) وا إسلاماه، ص١٩٤.
(٥) القصة من خلال تجاربي الذاتية، عبد الحميد جودة السحار، ص ٧٦. انظر أيضا: أثر المقامة في نشأة القصة المصرية الحديثة، د. محمد رشدي حسن، الهيئة المصرية العامة للكتابة، ١٩٧٤. القصة والرواية، د. عزيزة مريدن، دمشق، ١٩٧٩.
(٦) وا إسلاماه، ص٧٠.
(٧) وا إسلاماه، ص٦٦.
(٨) وا إسلاماه، ص٨٤.
(٩) وا إسلاماه، ص١٦٠.
(١٠) وا إسلاماه، ص٧٤.
(١١) وا إسلاماه، ص١٤٨.
(١٢) وا إسلاماه، ص٨.
(١٣) وا إسلاماه، ص١٣٢.
(١٤) وا إسلاماه، ص٢٤.
(١٥) وا إسلاماه، ص١٩.
(١٦) وا إسلاماه، ص١٨.
(١٧) وا إسلاماه، ص١٠.
(١٨) وا إسلاماه، ص٤٩.
(١٩) وا إسلاماه، ص٨٤.
(٢٠) وا إسلاماه، ص٢٠٥.
(٢١) تطور الرواية العربية الحديثة: عبد المحسن طه بدر، دار المعارف بمصر،١٩٦٨، ص٤١.
(٢٢) وا إسلاماه، ص١١٥.
(٢٣) وا إسلاماه، ص١٣٥ وص١٢.
(٢٤) النصوص الأدبية تحليها ونقدها، علي عبد الحليم محمود، ط٢، عكاظ للنشر والتوزيع، ١٩٨٢، ص٤٥.
(٢٥) وا إسلاماه، ص١٨٢.
(٢٦) نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد: عبد الرحمن رأفت الباشا، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض١٩٨٥، ص١٩٠.
(٢٧) السابق، ص٢٠٨.
(٢٨) وا إسلاماه، ص٦٦.
(٢٩) نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، سابق.

موقع الأديب
علي أحمد باكثير
www.bakatheer.com

علي أحمد باكثير
رائد الرواية التاريخية الإسلامية في الأدب العربي
(وا إسلاماه نموذجا)

د. محمد علي غلام نبي غوري. باكستان

تميزت فترة الأربعينيات من القرن العشرين بالذات بتوجه كتّاب الرواية في الأدب العربي إلى الاتجاه التاريخي، أمثال عادل كامل ونجيب محفوظ وعبد الحميد جودة السحار وعلي أحمد باكثير ومحمد سعيد العريان وعلي الجارم[١]، وهؤلاء الكتاب تتلمذوا على كبار الأدباء من الجيل الأول أمثال طه حسين والعقاد ومحمد حسين هيكل ومحمد فريد أبو حديد وتوفيق الحكيم، وتفردوا بالاتجاه الصادق لإنتاج رواية عربية تستهدف إبراز ما في تاريخنا العريق من مثل عليا ينبغي أن تسير على هداها أمتنا في جهودها من أجل الحرية والاستقلال ونصرة قضايا الحق، وتستنير بها في نضالها لبناء مستقبل زاهر يليق بماضينا التليد، وذلك حين يعلون من شأن قيمنا الروحية والأخلاقية والحضارية[٢].

لا شك أن جورجي زيدان (١٨٦١-١٩١٤م) كان رائد الرواية التاريخية في الأدب العربي، ولكنه لم يكن مدفوعاً بدافع قومي أو إسلامي في الالتفات إلى التاريخ العربي الإسلامي، وفي اختياره موضوعاته الروائية منه، ولذا تجنب صفحاته المشرقة وأمجاده العظيمة، ولجأ إلى تصوير مواقف الصراع السياسي على الحكم أو مواقف المغامرة والشغب[٣]، فكان كمن يدس السم في العسل.

ولا تعنى الرواية التاريخية بتقديم التاريخ للقارئ بالدرجة الأولى، لأن